١٠- ما بين غزوة أحد وغزوة الخندق

١- يوم الرجيع[١]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتتبعوهم بقريب من مائة رام فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلًا نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقى خبيب وزيد ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر فأبى أن يصحبهم فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فتقلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل وكان خبيب هو قاتل الحارث يوم بدر فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد به فأعارته قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخده فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك

(١) قال الحافظ: الرجيع اسم للروث سمى بذلك لاستحالته والمراد هنا اسم موضع من بلاد هذيل كانت الوقعة بقرب منه فسميت به، قوله: «لجئوا إلى فدفد» هي الرابية المرتفعة.

قوله: «**اللهم أخبر عنا رسولك**» في رواية الطيالسي عن إبراهيم بن سعد «فاستجاب الله لعاصم فأخبر رسوله خبره فأخبر أصحابه بذلك يوم أصيبوا»، وفي رواية بريدة «فقال عاصم: اللهم إني أحمي لك اليوم دينك فاحم لي الحمى». قوله: «**ما أن أُبَالِي**» هكذا للأكثر وللكشميهني «فلست أبالي» وهو أوزن. قوله «**أوصال شَلو ممزع**» الأوصال: جمع وصل وهو العضو والشلو الجسد والممزع المقطع، ومعنى الكلام: أعضاء جسد يقطع.

إن شاء الله. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا ما بي جزع من الموت لزدت: فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أَحَصْهم عددًا ثم قال.

مَا أَنْ أُبَالِي حين أُقتَلَ مُسلمًا   عَلى أَيِّ شَقٍ كَانَ اللهِ مَصرَعِي
وَذَاكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَا   يُبَارِكْ عَلى أَوصَالِ شَلوٍ مُمَزعٍ

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيءٍ من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر فحمته من رسلهم فلم يقدروا منه على شيء[(١)].

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- ***قال الحافظ:*** وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يمكن من نفسه ولو قتل، أنفة من أن يجرى عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن. قال الحسن البصري: لا بأس بذلك. وقال سفيان الثوري: أكره ذلك، **وفيه:** الوفاء للمشركين بالعهد والتورع عن قتل أولادهم والتلطف بمن أريد قتله، وإثبات كرامة الأولياء، والدعاء على المشركين بالتعميم والصلاة عند القتل **وفيه:** إنشاد الشعر، وإنشاده عند القتل دلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه.

وفيه: أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه ولو شاء ربك ما فعلوه، **وفيه:** استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًا وميتًا، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨) المغازي، وأحمد في المسند (٢/ ٣١٠). وفي رواية ابن إسحاق عن عاصم بن عمر عن قتادة قال: «كان عاصم بن ثابت أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا أبدًا فكان عمر يقول لما بلغه خبره: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما حفظه في حياته».

بالتأمل. وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هَتك حرمته بقطع لحمه. **وفيه**: ما كان عليه مشركو قريش من تعظيم الحرم والأشهر الحرم [١].

٢- **وفي الحديث تعظيم الصحابة لسنة النبي** ﷺ، وكيف أن خبيبًا مع أنه في أسر المشركين، ويعلم أنه سيقتل بين عشية أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصًا على سنة الاستحداد. واستعار الموسى لذلك وفي هذا واعظ لمن يستهين بكثير من السنن، بل وكثير من الواجبات بحجة أن لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظروف التي تمر بها الأمة، وفي الواقع لا مُنافاة بين تعظيم السنة والدخول في شرائع الإسلام كافة، والسعي لإقامة شرع الله.

والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، ونصر الله عَزَّ وَجَلَّ هو نصر دينه والعمل بشرعه والله المستعان.

٢- حادثة بئر معونة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رعلًا وذكوان وعصية وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو فأمدهم بسبعين من الأنصار كنا نسميهم القراء في زمانهم، كانوا يحتطبون بالنهار ويُصلون بالليل، حتى كانوا ببئر معونة قتلوهم، وغدروا بهم، فبلغ النبي ﷺ فقنت شهرًا يدعو في الصبح على أحياء من أحياء العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، قال أنس: فقرأنا فيهم قرآنا، ثم إن ذلك رفع، بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا» [٢] وهذه رواية مختصرة وقدمناها لأنها في الصحيح.

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٤٥) المغازي، ومسلم (١٣/ ٤٦، ٤٧) «الإمارة».

وهناك روايات أخرى رواها أحمد والطبراني بأسانيد قال عنها الهيثمي رجالها رجال الصحيح، منها ما رواه عبدالرحمن بن كعب بن مالك وغيره أن عامر بن مالك الذي يدعي ملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ وهو مشرك، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وقال رسول الله ﷺ **«إني لا أقبل هدية مشرك»** فقال عامر بن مالك: ابعث يا رسول الله من رسلك من شئت فأنا له جار. فبعث رسول الله ﷺ رهطًا فيهم المنذر بن عمرو الساعدي، وهو الذي يقال له: أعتق ليموت، عينًا في أهل نجد، فسمع بهم عامر بن الطفيل، فاستنفر لهم من بني سليم فنفروا معه، فقتلهم ببئر معونة غير عمرو بن أمية الضمري، أخذه عامر بن الطفيل فأرسله، فلما قدم على رسول الله ﷺ من بينهم، وكان فيهم عامر بن فهيرة، فزعم لى عروة أنه قتل يومئذ فلم يوجد جسده حين دفنوه، كانوا يرون الملائكة هى دفنته فقال حسان يعرض على عامر بن الطفيل:

بَـني أَمِ الـبَـنِـينَ أَلَمْ يَـرَعَـكْـمُ ... وَأَنـتُـم مـنُ ذَوَائِـب أَهـلِ نَجـدِ

تَـهَـكُـمُ عَـامِـر بَـأَبِـي بَـرَاءِ ... لِـيَـخْـفـرَهُ وَمَـا خَـطـأٍ كَعَمدِ

فطعن ربيعة بن عامر بن ربيعة بن مالك عامر بن الطفيل في فخذه طعنة فقده[1].

وفي «الصحيح» عن هشام بن عروة قال: أخبرني أبي قال: «لما قتل الذين ببئر معونة وأُسر عمرو بن أمية الضمري قال له عامر بن الطفيل: من هذا وأشار إلى قتيل فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة فقال: لقد رأيته بعد ما قُتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إليه بين السماء والأرض، ثم وضع، فأتى النبي ﷺ خبرهم فَنَعَاهُم، فقال: إن أصحابكم قد أصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا فأخبرهم عنهم، وأُصيب فيهم عروة بن أسماء بن الصلت فسمى عروة به، ومنذر بن عمرو سمى به منذرًا» [2].

(١) ذكره الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٢٧) وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه أحمد عن أنس (٣/ ٢١٠، ٢٧٠، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٥٠) المغازي.

وفي رواية للبخاري عن أنس: أن حرام بن ملحان قال: أتؤمنوني أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ؟ فجعل يحُدثهم. وأومئوا إلى رجلٍ فأتاه من خلفه فطعنه. قال همام: أحسبه حتى أنفذه بالرمح، قال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة [١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «لما طعن حرام بن ملحان -وكان خاله- يوم بئر معونة قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة [٢]. وكانت هذه الحادثة كما رجحه ابن إسحاق وتبعه ابن القيم في «الزاد» وغيره في صفر من السنة الرابعة.

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- قال الغزالي: إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولاريب أن تأميل المسلمين في المستقبل، وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩].

غير أن هذه الكراهية اختفت أمدًا بعد انتصار بدر، بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف المترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإ سلام يناوشونه في كل مكان[٣].

٢- وفي القصة كرامة ظاهرة لعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر، والكرامة هي الخارقة الرحمانية التي يسوقها الله عَزَّ وَجَلَّ على يد ولي من أوليائه، ومن أولى بذلك من الصحابة الكرام الذين كانت آيات صدقهم ظاهرة وعلامات إيمانهم وجهادهم باهرة.

(١) رواه البخاري (٧/ ٤٤٦) المغازي.
(٢) رواه البخاري (٧/ ٤٤٦) المغازي.
(٣) «فقه السيرة» [٢٩٨].

وفيها كذلك منقبة ظاهرة لحرام بن ملحان، وعلامة على صدقه في طلب الشهادة وتمنيها، حتى نضح الدم على وجهه ورأسه وقال: فزت ورب الكعبة، نسأل الله تعالى أن يمن علينا بفضله، وأن يرزقنا شهادة في سبيله، تكون كفارة للذنوب وتلحقنا بهؤلاء الأئمة العلام والأولياء الكرام.

٣- حادثة بئر معونة وغيرها مما لايدل على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، كما دلت على ذلك أدلة أخرى منها قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف:١٨٨] فالله عَزَّ وَجَلّ هو وحده عالم الغيب، والرسل والملائكة لا يعلمون عن الغيب إلا ما علمهم ربهم عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن:٢٦، ٢٧].

٣- إجلاء بني النضير[١]

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما كما حدثني يزيد بن رومان، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم

(١) ذكر البخاري: حديث بني النضير في كتاب المغازي بعد غزوة بدر وعلق عن الزهري عن عروة كانت على رأس ستة أشهر من وقعة بدر قبل وقعة أحد.

وأشار كذلك إلى خلاف ابن إسحاق فقال: وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونه وأحد (٧/ ٣٨٢) «فتح الباري».

قال ابن القيم: وزعم محمد بن شهاب الزهري أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بسنة أشهر وهذا وهم منه أو غلط عليه بل الذي لا شك فيه أنها كانت بعد أحد والتي كانت بعد بدر بسنة أشهر هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق وخيبر بعد الحديبية «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٩).

ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي – رضوان الله عليهم – فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبي ﷺ أصحابه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلًا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلًا المدينة. فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم.

قال ابن هشام: واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم. قال ابن إسحاق: ثم سار بالناس حتى نزل بهم. قال ابن هشام: وذلك في شهر ربيع الأول فحاصرهم ست ليال ونزل تحريم الخمر.

قال ابن إسحاق: فتحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أن يا محمد قد كنت تنهي عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما قطع بال قطعى النخيل وتحريقها.

وقال: كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبدالله بن أبي ابن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من اموالهم إلا الحلقة ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام [1].

(١) رواه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٢٤٠، ١٤١) مع «الروض الأنف».

وفي هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأسرها، وهي تسمى سورة النضير عن سعيد ابن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة النضير [(١)]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «حرق رسول الله ﷺ نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٥]» [(٢)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ حرق نخل بني النضير قال: ولها يقول حسان بن ثابت:

وَهَانَ عَلَى سُرَاةِ بَنِي لُؤَيٍ ... حَرِيقٌ بِالبُوَيرَةِ مُستَطِيرٌ

قال فأجابه أبو سفيان بن الحارث:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

سَتَعلَمُ أَيَّنَا مَنْهَا بِنزهٍ ... وَتَعلَمُ اىُّ أَرضِينَا تَضِيرُ[(٣)]

وقال السهيلي: ولم يختلفوا في أن أموال بني النضير كانت خاصة برسول الله ﷺ وأن المسلمين لم يوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب، وأنهم لم يقع بينهم قتال أصلًا [(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي، ومسلم (١٢/ ٥٠) «الجهاد والسير».

(٣) رواه البخاري (٧/ ٣٨٣) المغازي، ومسلم (١٢، ٥٠، ٥١) الجهاد والسير. قوله: «**سراة**»: جمع سرى وهو الرئيس. مستطير: أي مشتعل. قال الحافظ: وإنما قال حسان ذلك تعييرًا لقريش لأنهم كانوا أغروهم بنقص العهد وأمروهم به ووعدوهم أن ينصروهم إن قصدهم النبي ﷺ.

قوله: «**فأجابه أبو سفيان بن الحارث**» أي ابن عبد المطلب وهو ابن عم النبي ﷺ وكان حينئذٍ لم يُسلم وقد أسلم بعد الفتح. قوله: «**ستعلم أينا منه بنزه**» أي ببعد وزنًا ومعنى.

وقوله: «**تضير**» من الضير وهو بمعنى الضر، وأراد أبو سفيان: أن أرض بني النضير إذا خرجت أضرت ما جاورها من أراضي الأنصار بخلاف أرض قريش فهي بعيدة.

(٤) «الروض الأنف» بتصرف هامش (٣/ ٢٥٠) مع سيرة «ابن هشام».

الفوائد والآثار الإيمانية:

١- **قال الغزالي:** في هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها فوصفت طرد اليهود في صدرها بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ ﴾ [الحشر: ٢].

ثم فضح القرآن مسلك منافقي المدينة الذين حاولوا إعانه يهود في غدرها وحربها وحرضوا على مقاتلة المسلمين، بما وعدوها من إمداد وعتاد فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الحشر: ١١] (١).

٢- **قال محمد سعيد رمضان البوطي:** هذه صورة ثانية من الغدر والخيانة المتأصلة في نفوس اليهود، وقد رأينا من قبلها صورة أخرى من خيانتهم فيما أقدم عليه يهود بني قينقاع، وتلك حقيقة تاريخية صدقتها الوقائع التي لا تحصى، وذلك هو سر اللعنة الإلهية التي حاقت بهم، وسجلها بيان الله تعالى في قوله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

وقال: قطع نخيل بني النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه النبي ﷺ من ذلك قطعًا وإبقاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: ٥]، وقد استدل عامة العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم. وهذا الذي قلناه من إباحة قطع شجر الكفار أو

(١) «فقه السيرة» للغزالي [٣٠١].

إحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

وروى عن الليث بن سعد وأبي ثور والأوزاعي القول بعدم جوازه(١).

اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال وهو «الفيء» يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، فقد خص به كما رأيت المهاجرين وحدهم وقد نزل القرآن تصويبًا لذلك(٢).

٣- فضح الله عَزَّ وَجَلَّ اليهود في هذه السورة كما فضح المنافقين فقال تعالى:

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

قال القاسمي: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ أي اليهود وإخوانهم ﴿ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾ أي بالحصون، فلا يبرزون إلى البزار ﴿ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ أي من خلف حيطان لفرط رهبتهم منكم ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾.

قال الزمخشري: يعني أن البأس الشديد يوصفون به إنما هو بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن، والعزيز يذل عند محاربة الله ورسوله. انتهى.

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أي تظنهم مجتمعين لاتفاقهم في الظاهر، والحال أن قلوبهم متفرقة، لأختلاف مقاصدها، وتجاذب دواعيها، وتفرقها عن الحق بالباطل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ قال المهايمي: أي الاجتماع في الظاهر مع افتراق البواطن ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ أي أنه يوجب جبنهم المفضي إلى الهلاك الكلي. انتهى.

(١) باختصار من «فقه السيرة» للبوطي (٢٠٤، ٢٠٥) والجزء الأخير من «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ٥٠).
(٢) «فقه السيرة» للبوطي [٢٠٥] باختصار.

obeikandl.com

وفي هذه الآيات الثلاث تشجيع للمؤمنين على منازلتهم والحمل عليهم، وتبشير لهم بأنهم المنصورون الغالبون [١].

٤- غزوة بدر الآخرة

قال ابن إسحاق: ثم خرج في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان، حتى نزله فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنة من ناحية الظهران، ثم بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا.

فرجع الناس فسماهم أهل مكة «جيش السويق» يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.

وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أبا سفيان لميعاده فأتاه مخشى بن عمرو الضمري وهو الذي كان وادعه علي بني ضمرة في غزوة ودان فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك. قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك من حاجة. فأقام رسول الله ﷺ ثم انصرف إلى المدينة [٢].

٥- غزوة دومة الجندل

قال ابن إسحاق: فأقام بها شهرًا حتى مضى ذو الحجة، وولى تلك الحجة المشركون، وهي سنة أربع، ثم غزا رسول الله ﷺ دومة الجندل.

قال ابن هشام: في شهر ربيع الأول، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري.

---

(١) «محاسن التأويل» (١٦/ ١٠٧) ط. دار الفكر.

(٢) باختصار من «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٤٨، ٢٥٠) مع «الروض الأنف».

قال ابن إسحاق: ثم رجع رسول الله ﷺ قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيدًا فأقام بالمدينة بقية سنته[١].

٦- حوادث أخرى في السنة الرابعة

١- وفاة أبي سلمة عبدالله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب وأول من هاجر من أصحابه إلى المدينة بأهله ثم فرق المشركون بينهما.

٢- وفاة عبدالله بن عثمان وابن رقية بنت رسول الله ﷺ وله من العمر ست سنين.

٣- ولادة الحسين بن علي رضي الله عنهما، وهو سبط النبي ﷺ ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

٤- زواج النبي ﷺ بزينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأم المساكين.

٥- تزوج النبي ﷺ بأم سلمة بعد انقضاء عدتها من أبي سلمة رضي الله عنها.

(١) «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٨) مع «الروض الأنف».

obeikandl.com